

هل نحن شعب قذر؟

رحلة في سبيل النظافة...

يذكر التاريخ أن الشعب المصرى القديم كان من أنظف شعوب العالم ، تشهد بذلك وصاياه وصوره ونحلفاته . وذلك طبيعى فى شعب فتح التاريخ عينه على حضارته الذهبية فى التقدم مذهب التاريخ ، والنظافة طابع الحضارة الأولى فى جميع الشعوب .

فمن العجيب إذن أن تنقلب هذه الحالة فتصبح القذارة هى الطابع الشعبى الغالب فى هذه الأيام ، ذلك الطابع الذى تراه العين وتتأذى به فى كل ماتقع عليه .

تراه باديا فى الملابس القذرة التى يلبسها الفلاحون والعمال ومن فى طبقتهم ، وهى مليئة بالقع والوساحة والأترية ، وذلك من اختلاف الأزياء فى هذه الأوساط ذلك الاختلاف الذى يدل على سوء الذوق وضعف ملكة النظام . فنحن لانريد مؤقتا إلا النظافة لهذه الأزياء المختلفة جد الاختلاف .

وتراه واضحا فى البيوت ، فضلات الآدميين والحيوانات والطيور مخلوطة بالتراب وبقايا الطعام والماء القذر ... جميعها تؤلف "معجنة" يتوالد فيها الذباب والبعوض والصراصير وسواها من الحشرات ، فضلا على الرائحة الكريهة والمنظر المؤذى ، الذى ألفتة أعين الفلاحين فى القرى وسكان الأحياء الوطنية فى المدن حتى أصبحت لاتنفر منه ولا تأباه .

وتراه فى الطرقات المهملة المكسرة بفضلات البيوت ، وبأكوام السماد العضوى ، وأنقاض البيوت المهدومة ، حتى تبلغ الحال أن يكون هذا مظهر بعض الشوارع الرئيسية فى العاصمة ذاتها حين تهدم البيوت أو تشق الشوارع لأنابيب الماء والمجارى والنور ، أو لغيرها من الأغراض ، ويقع فى بعض الأحيان أن يضطر المارة الى تسلىق هذه اللال والتدحرج من فوقها نارية فى الظلام . كما يقع أن يتزل المطر الخفيف فيجبل هذه الأكداس فى قلب القاهرة الى مزالتى وبرك ومستنقعات وأحوال لعدة أيام .

وتراه فى المطاعم الوطنية جائنا على موائدها وصحافها وأدوات الأكل والمناشف وسواها وإنك لتجد الذباب يطن ، وفضلات الطبخ متجمعة بجوار هذه المطاعم بصورة مؤذية ،

ونظرة واحدة الى الطريقة التي تنظف بها الصحاف والأدوات كفيلة بأن تتقزز لها النفس ، ومع هذا تقبل طبقات كبيرة من الشعب على تناول الطعام هناك وهذه المناظر أمامهم بدون حذر ولا تقزز .

وترآة في دكا كين البدالين والقصاين وبائعي الخضر والفاكهة على الرغم من جميع الإجراءات الصحية المشتركة في افتتاح هذه البكا كين مما يشوه منظرها ، ويولد في النفس الاشتزاز من منظرها بله تناول ما فيها من الضروريات .

وطبيعى أن ترى طابع القذارة بعد ذلك في الباعة الجوالين وعربانهم وفي باعة اللبن وأدواتهم . لا في المرات التي يبيعونها فقط ولكن في ملابسهم وأجسادهم ووجوههم وأصابعهم التي يلمسون بها ما يبيعون أو يغطسونها فيما يبيعون إذا كان سائلا كاللبن والشراب ، بلا حذر ولا مبالاة .



بين هذه الحالة وبين الحالة الاقتصادية العامة لهذه الطبقات صلة كبيرة لولا شك ، فالعجز عن النظافة سبب أصيل من أسباب القذارة ، وكل محاولة لرفع مستوى هؤلاء الناس من الوجهة المادية هي محاولة في سبيل النظافة من غير شك . وكثيرون أولئك الذين يقدمون عن النظافة عدم القدرة على شراء الصابون بل على شراء الماء في كثير من الأحيان ، وكثيرون ليس بملابسهم التي على أجسادهم بدل فهم لا يملعونها حتى تبلى ، ولا يجدون سواها بعد أن تبلى ، فيرة مونها ويغيطونها خياطة رديئة تمسك مزقتها مجرد إمساك ، ولا حيلة لهم في هذا المظهر الزرى الذى تتأذى به العين .

ولكننا مع هذا نعلم الحالة الاقتصادية إذا نحن حملناها تبعه هذه القذارة المامة . فكثيرون جدا من هؤلاء القذرين يملكون النظافة . والنظافة ليست غالية الثمن حين تراد ، بل يملكون الأناقة لا مجرد النظافة وهم مع ذلك قذرون .

خذ مثلا لذلك تلك المطاعم الشعبية الكبيرة التي يربح أصحابها مئات الجنيهات . كل شهر في بعض الأحيان ، وهى مع هذا قذرة المقاعد والموائد والأدوات والمناشف ، وقذرة الحوائط والسقف والأرض وقذرة العمال والخدم . ما علة هذه القذارة في تلك المطاعم وأصحابها يملكون نظافتها من أيسر سبيل ؟

ثم دكا كين البدالة والخنتر والما كيه والخم واللبن وسواها ، وأصحابها غير فقراء ، والنظافة لا تكلفهم الكثير ، والنظام لا يكلفهم شيئا أصلا ، وهم مع هذا قذرون وبضاعتهم قذرة في كل مكان .

ثم هؤلاء الباعة الجوالون وهؤلاء العمال الصغار الذين يلبسون جلابيب متعددة الأشكال والألوان وثمان هذه الجلابية بلا شك يعادل أو يزيد على ثمن الكساء الأزرق أو البني الجميل الذي يابسه بعض العمال . وهذا الكساء أمتن وأكثر تحملا للعمل وللغسل ، وهم مع ذلك لا يلبسونه ، ولو لبسوه لكان خضوة كبيرة في سبيل توحيد الأرياء .

ثم انظر إلى أطفالنا في القرية وفي قلب المدينة وهم يخوضون في أوحال المطر أو الأوحال الناشئة من كسر أنبوبة مياه في الطريق العام . انظر اليهم تجدهم يلتذون هذا الخوض ويمرحون في هذه القذارة وهناك جانب الطريق النظيف وهم يتكبدون عنها هربا من النظافة فالقذارة إذن في روحهم وفي عاداتهم ، وليست اضطرارا لا محيص لهم عنه !

ثم انظر هؤلاء الذين يلقون بالقمامات في الطرقات العامة وعلى بعد أمتار منهم صندوق معد لهذه القمامة . أو إلى هؤلاء الذين يلقون الأوراق المهملات في الطريق وأما هم سلة المهملات معلقة في العمود . أو إلى الذين يلقون بأعقاب السجائر في أرض المقهى أو على بساط حجرة الجلوس أو يطفئونها في أطباق القهوة وأمامهم منفضة السجائر ، أو إلى أولئك الذين يبتعدون على الأرض وفي جيوبهم الماديل ، كأنما وضعت هناك للزينة !

هؤلاء جميعا حجة على أن القذارة عادة وليست ناشئة عن اضطرار أو عجز عن النظافة .

ولا أريد أن أتحدث عن الريف القذر حتى في بيوت الوجاهة هناك ، القادرين على النظافة لو أرادوها ، ولو نظفوا بيوتهم لكانوا في ذلك قنوة لسواهم من صغار الفلاحين ، ولكن القرى بأغنيائها وفقرائها تنغمس في هذه القذارة بلا اهتمام .

وكثيرا ما نشاهد عاملا مصريا وعاملا أجنبيا يتقاضيان أجرا واحدا ، أو بائعا مصريا وبائعا أجنبيا يكسبان مكسبا متاريا ، أو دكانا مصرية ودكانا أجنبية متساويتين في رأس المال ، ثم نرى الفرق بعيدا بين مظهر كل منهما ومظهر الأخرى في النظافة والإناقة والترتيب .

المسألة إذن ليست مسألة الفقر وحده ، ولا مسألة العجز وحده . إنما هي أعمق من ذلك ، هي مسألة الحالة النفسية ، ومسألة التربية المنزلية ، ومسألة الشعور الإنساني بالحياة .

وهنا نلمس نقطة خطيرة أو تمظا خطيرة .

فأنا أعتقد أن طول الجهود الجمول الشعبية في مصر من جراء الضغط السياسي والاقتصادي
مثبت الأجيال ، قد أثرت في الروح المصرية العريقة ، وقضت أو دفنت روح الحضارة
المصرية القديمة ، فأصبحت النفسية الشعبية بالكثير من الجمول والزهد و"القرف" من الحياة .
ومن شأن هذه الحالة أن تमित الميل الى النظافة ، فالنظافة حاجة روحية قبل أن تكون
حاجة جسمية ، والفرد الذي يشعر بقيمته يميل الى النظافة وحسن المظهر ، وكذلك الشعب
الذي يشعر بقيمته ومركزه في الحياة .

ولقد كان المصري يحس بعظمة مكانته في العالم وسمو عنصره على جميع العناصر في أيام
مصر القديمة العريقة ، فكان لهذا نظيفا خفيفا ، وكان رياضيا كذلك منبها يجسسه وهندامه
معا ، فلما توالى عليه الكوارث وفقد استقلاله ، وفقد أهميته في الكون أوى الى الجمول
والقذارة والركود .

القذارة اذن مظهر طارئ على المصريين ، نشأ عن الجمود الروحي ، والجمول الأدنى ،
فاذا عرفنا ذلك عرفنا كيف نضع يدانا على النقطة الحساسة في العلاج ، وهي استعادة الشعور
بالعزة القومية والعظمة العنصرية ، والأعجاب الوطنية ، وعرفنا أن الورا الحساس الذي يجب
أن نوقع عليه هو وورا الاحساس القومي والوطني في نفوس المصريين .

النظافة ممكنة - مع الفقر بل مع العوز - اذا أيقظنا في النفس المصرية حاجتها الى النظافة ،
وستحس بهذه الحاجة يوم تحس أنها في حاجة الى حسن المظهر الداعي الى الاحترام ،
وستحس بهذا الاحساس الأخير يوم تشر أنها شيء له قيمة في الحياة وليست كمية مهملة
في نظر الدنيا ولا في نظر الحكام !

وتلك هي نقطة البدء في العلاج .

ولكن هذا أمر يطول ، ولا بد معه من وسائل أخرى مباشرة وسريعة ، وهذه الوسائل
هي التي نقترحها فيما يلي باختصار :

أولا - العناية بتربية الذوق وبث روح النظافة في الأطفال الصغار ، وتربية الذوق
كلمة صغيرة ولكن تحمقها يحتاج الى مجهود ضخم تشترك فيه قوى الدولة وقوى الأمة جميعا !

فتربية الذوق تقتضى أن تجمل جميع المناظر التي تقع عليها عيون الأطفال في البيت والطريق
والمدرسة ، وهذا يردنا الى طلب المعجزة التي تبث النظافة والجمال في جميع هذه الأوساط .

أذن نتواضع ونطلب فقط أن يكون منظر المدرسة التي يقضى فيها التلميذ ثمان ساعات في اليوم تقريبا ، منظرا يربي الذوق في النفوس ، وهذا وحده ، يعد نواة طيبة لتربية الذوق ، فإذا أضفنا اليه مراعاة الجمال في كتب التلاميذ والمصورات المعقّدة بالحدران ، وفي حديقة المدرسة ونظام فنانها ، كان ذلك خطوة أخرى كبيرة .

وإذا أضفنا الى ذلك أن تعمل الدولة على الإكثار من المنزهات والحدائق العامة ولا سيما في الأحياء المكتظة . بحيث يجد أطفال هذه الأحياء متنفسا غير البيوت القذرة والطرفات الموحلة ، فإن ذلك يقربنا جدا من تربية الذوق العام .

وإذا أضفنا الى هذا وذلك أن تعمل الدولة على مراعاة روح النظام والجمال في المباني بطريق القانون والإرشاد الفني ، بحيث تمثل أو تتقدم تلك المناظر المشوَّحة للأبنية حتى في الشوارع الجديدة ، كان ذلك ترفا تراه الأمم المتحضرة من الضروريات لتربية الذوق العام !

وبجانب هذه المظاهر العامة ينبغي أن تتابع المدارس عنايتها بالنظافة الشخصية للتلاميذ ، وهي تبذل الآن عناية مشكورة بالفعل ، ولكن يجب أن توضع جوائز للنظافة تشجعا للتلاميذ ، وتمنح هذه الجوائز على الأخص لأبناء الفقراء من التلاميذ الذين يبذلون في النظافة جهدا حقيقيا لا يبذله أبناء الأغنياء . فهؤلاء يبذلون النظافة ميسرة ولا ضرورة لتشجيعهم عليها ، فهم بحكم وسطهم نظيفون غالبا ، إنما أولئك هم الذين يحتاجون الى التشجيع والتعويد .

ثانيا - بتيسير وسائل النظافة للعاجزين عنها من الوجهة المادية ، ووزارة الصحة ووزارة الشؤون الاجتماعية تعملان على ذلك بإنشاء المناسل والحمامات وتوزيع الصابون والملابس ، ولكن هذا العمل ينبغي أن يقوم على دعائم شعبية كبيرة ، فيزانية الدولة لا تسمح بتلبية جميع الحاجات ، والمبرات التي يهيم بها الأهالي يجب أن ينصرف قسم كبير منها الى هذه الناية ، فلدينا مؤسسات خيرية كثيرة عندنا منها فوق الكفاية ، بنينا المؤسسات العصرية الحديثة قليلة أو نادرة . فمن الواجب أن نراعى روح العصر فيما ننشئ من مؤسسات ، وتيسير النظافة من أشد ما يحتاج اليه شعب فقير .

ثالثا - بالتشريع والمراقبة . وهذا ما توجه إليه وزارة الصحة جهودا مشكورة ، ولا سيما صحة العاصمة ، ولكن يجب أن يكثُر عدد المفتشين والمعاونين الصحيين ، وأن تشد وسائل المراقبة ، وأن تزيد العقوبات المفروضة على المخالفات الصحية . وقد أثمرت جهود الصحة في مظاهر بعض الدكاكين والعربات الجوّالة ، ولكن ملابس الخدم والعمال بهذه الحال وملابس الباعة الجوّالين كذلك وأجسامهم لم تشملها النظافة .

ولا ينبغي عنا أن الحائنة المادية لبعضهم قد تجعل النظافة عينا ثقيلا على مواردكم ، ولكن تيسير وسائل النظافة المجانية قد يحل هذه المشكلة ، ويجعل النظافة ميسورة للجميع .

رابعا - بالعمل على الإثثار من المراحيض العامة في البيوت والتورى في الريف، فكثير من المياه القذرة يعصب في الشوارع لأنه لا مصرف له إلا الطريق العام ، وهذا يسبب كثيرا من الأمراض فوق المنظار القذر .

خامسا - بالإرشاد والتلقين . وفي هذا السبيل يجب أن نجرد حملة مشتركة من رجال الدين ورجال التعليم ورجال الصحة والمرشدين الاجتماعيين ، ومن الإذاعة والتمثيل . ومن جميع الوسائل التي تملكها .

فالواقع أن الكثيرين ينقصهم الإرشاد والتوجيه ، أكثر مما تنقصهم المقدرة على النظافة ، وهؤلاء نستطيع أن نكسبهم إذا دخلنا إلى نفوسهم من باب الدين تارة ، ومن باب الصحة تارة ، ومن باب الكرامة تارة ، فيصبحون بدورهم جنودا في معركة النظافة .

وهنا ينبغي أن ننبه إلى العامل النفسى الذى تحدثنا عنه آنفا ، فعامل الكرامة من أهم العوامل فى النظافة ، وقلما رأيت فردا واحدا يشعر بكرامته فى الريف أو فى المدينة ثم يبتلى على قذارته ، فبين الشعور بالكرامة وبين النظافة صلة وثيقة فى جميع الأزمان والأحوال .

وقد أسلفت الحديث عن أثر المهابة القومية والانحلال الوطنى فى روح النظافة التى عرف بها المنصريون القدماء ، فلنعمد على إثارة روح الكرامة القومية والشخصية إذا أردنا إيقاظ هذا الروح القديم العريق .

ويجب أن نذكر أن مشكلة البلهارسيا والانكلستوما والأمراض الجلدية المختلفة والملاريا والتيفود والتيفوس هى مشكلة النظافة ، فالتبول والتبرز فى المجارى العامة هو صلة الأمراض المتوطنة ، والملاريا هى مرض البعوض والتيفود هو مرض الحضر القذرة ، والتيفوس هو مرض القمل . والأمراض الجلدية هى أمراض السخا .

وأخيرا يجب أن نتجه إلى الأم المصرية نستجد بهما تربية الطفل المصرى على روح النظافة والنظام ، وهى لن تسمع صيحتنا إلا إذا كانت متعلمة ، ولكننا مع الأسف الشديد نرى البنت المصرية تتعلم لتهجر البيت مطالبة بعضوية البرلمان وبالوظائف العامة ، أو تترك إلى البيت ولكنها تمرد على شؤونها الخاصة وعلى تربية الجيل الجديد .

إننا نريد مجندات فى معركة النظافة ومعركة التربية الجديدة ، مجندات ينشئن الجيل ، ويقدن الأمهات اللاتى لم يسمعهن الحظ بقسط من التعليم ، ويوجهنهن إلى التصرف فى هذه المعركة العظيمة .

لقد كنا شعبا نظيفا فى أول التاريخ ، فلنبق شعبا نظيفا ، والأمم من حولنا قد أخذت عنا أول حضارة فى التاريخ .